# المقدمة

إذا كنا اليوم نريد أن نتحدث عن الفتوحات الإسلامية التي جهزها واتفق علماً وأمر بها وسيرها وفاقاً لرأيه. وإذا كان لنا أن ننتقد سياسة الحجاج القامعة وإغراقه في العنف والقسوة والبطش. فإن علينا أن نحمد له رأيه في هذه البعوث العظيمة التي حملت رايات الإسلام إلى حدود الصين والهند.

والمتشرفون وإن كانوا لا ينكرون على الحجاج شدته وقسوته ومظالمه. إلا إنهم لا ينكرون في الوقت نفسه أنه لولا هذه الشدة لما تمكن الحجاج من القضاء على الفتن الداخلية التي كانت تهدد الإمبراطورية العربية. ولا تمكن بعد القضاء على هذه الفتن من توجيه البعوث إلى ما وراء الإمبراطورية على هذه الفتن من توجيه البعوث إلى ما وراء الإمبراطورية من الأقطار والممالك.

كان الناس أيام الحجاج إذا تلاقوا في المجالس أو المجامع والمساحة والأسواق تساءلوا من قتل البارحة ومن صلب ومن جلد ومن قطع وانتهي به الأمعان في الظلم إلى أن يأمر الناس بحلق لحاهم. ويعاقب المخالف له بذلك بتسميره في الحائط فيموت جوعاً وألماً وهو لا يستطيع سبيلاً إلى الحراك.

كان يجد لذة في سفك الدماء وارتكاب مختلف ألوان العنف والقمع.

وقد أحصي عدد من مهام الحاج سواء من قتل في عساكره وحروبه. فوجد مائة وعشرين ألفاً. ومات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة. وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد. ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف ولا من المطر في الشتاء. وكانت غير ذلك من أساليب العذاب.

الحجاج هذا الرجل الذي شغل الناس في عصره وشغلهم بعد عصره إذا نحن أمام ظاهرة عظيمة الخطورة بعيدة الأثر في دراسة التاريخ الأموي وتقديمه.

وكان يكره العراقيين وكان العراقيون يكرهونه واشتد كره الحجاج للعراقيين بعد ثورة ابن الأشعث وأخذ يخشي حقدهم عليه بعد أن قتل كبارهم وفرق أوساطهم واد في قلوبهم.

هـذه الشـخصية التـي حـيرت كل المؤرخـين عـن حقيقـة دوره في الدولـة الأمويـة وقد جمعـت كل التناقضـات وتعـددت الكتـب والبحـوث والدراسـات التـي تصـدت للمرحلـة الأمويـة ودور الحجـاج فيهـا حيـث كان دوره في الدولـة الأمويـة مثـل ميـزان وعـاد لهـا التـوازن العسـكري والسـياسي للدولـة الأمويـة.

الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي هـذه الشـخصية التـي تشـبه بمصـاصي الدمـاء وتتلـذذ بالقتـل ومشـاهدته الجريمـة وبأمـر يقتـل الآلاف أن اختلفـوا معـه. وكان يحمـل الكراهيـة لمـن يقـول لـه لا . لا يسـمع النصيحـة.

وكان يقتـل الرجـل عـلى أبسـط الأخطـاء – حتـى إن عبـد الملـك بـن مـروان صنجـر منه وأراد التخلـص منـه لـو لم يكـن بحاجـة إليـه لمـا لـه مـن سـمعة ترهب وترعـب كل مـن يريد أن يقـف بوجـه الدولـة الأمويـة لذلك أبقـاه يتحكم برقاب النـاس بالقتل والسـجن والتعذيب.

إنهـا شـخصية محـيرة – تسـتحق الدراسـة والتحليـل النفـسي لهـذه الرجـل الـذي انتزعـت الرحمـة مـن قلبـه وبالرغـم مـن كل مـا قدمـه مـن خدمـات مـن الفتوحـات الإسـلامية في عهـده لكـن كل ذلـك لم يشـفع لـه عـما ارتكبـه مـن قتـل وتنكيـل بالنـاس. مما جعـل كراهيـة لـه أيـن مـا حـل ومحاولـة التخلـص منـه كان ينظـر للعـراق نظـرة الكراهيـة والخـوف منـه لأنـه يعلـم أن العراقيـين يرفضـون الظلـم والاسـتبداد لذلـك كانـت ثـورات العراقيـين ضـده كثـيرة وبالرغـم مـن القتـل بـالأف الرجال فمنهـم – لكـن الثورات اسـتمرت في العـراق وهـددت الحكـم الأمـوي لذلـك وكان الحجـاج يقمـع العراقيـين بالعنـف بالقتـل.

ولذلـك عندمـا أعلـن عـن وفاتـه أخـذ العراقيـين يهنئـون بعضهـم بعـض بإزاحـة هـذه الغمـة التـي أصابـت العـراق.

لقـد كتـب عـن الحـاج بـن يوسـف الثقفـي حاكـم العـراق القـوي الكثـير مـن البحـوث والدراسـات ولكـن جميعهـا كانـت تتحـدث عـن هـذه الشـخصية المتعطشـة للدمـاء. والآخـر يتحـدث عـن أعمالـه في نـشر الدعـوة الإسـلامية في عهـده ومـا قـام بـه مـن فتوحـات ولكـن كـما ذكرنـا أن كل ذلـك لا يعطيـه الحـق في ارتـكاب المجـازر والقتـل والسـجن عـن أي سـبب لا تسـتحق مثـل هـذه الإجـراءات ولكـن تعطشـه للدمـاء وإثبـات وجـوده وولاءه للدولـة الأمويـة ارتكبـت هـذه

المجـازر مـن ضربـه الكعبـة وقتـل ابـن الزبـير ويـترك جيشـه ليرهـق كل مـن يحـاول الخـروج عـن الدولـة الأمويـة.

لذلـك كانـت لبنـي أمويـة الحمايـة لـه ومنحـه كل الصلاحيـات بـدون مسـاءلة للقيـام بمثـل هـذه المجـازر .

لقـد قتـل عـشرات الآلاف مـن البـشر ولـو كانـت هنـاك عدالة لـكان وجـب محاكمته بجرائـم الإبـادة البشريـة ومعاقبتـه مـع الذيـن سـمحوا لـه بارتـكاب هـذه الجرائـم التـي أزهقـت أرواح أبريـاءه مـن الرجـال والنسـاء والأطفـال ونهـب وحـرق اداضجـام ودورهـم.

كانـت جميـع المراجـع والكتـب الـذي وضعهـا أمامـي متشـابهة في الحكـم عليـه في مسـيرته وسـفكه الدمـاء وهـي تتحـدث عـن فـترة حياتـه وحكمـه.

ولكـن ليـس في التاريـخ شـخص وثـور بـه ملـك مـن الملـوك أو خليفـة مـن الخلفاء كـما وثـق عبـد الملـك بـن مـروان الخليفـة الأمـوي بالحجـاج بـن يوسـف عاملـة عـلى العـراق وبـلاد فـارس وخراسـان ومـا وراءهـما مـن أمصـار وبـلاد.

لـذا نجـد أن تشـابهت هـذه المراجـع فهـي مـن مصـب واحـد وكل كاتـب أو باحـث وجهـة نظـره عندمـا يحلـل هـذه الشـخصية ويكتـب عـن حياتهـا وأفعالهـا وإنجازاتهـا ولكـن تبقـي حقيقـة واحـدة هـي أن الحجـاج بـن يوسـف الثقفـي هـي الشـخصية التاريخيـة التـي حكـم عليهـا التاريـخ بأنهـا أسـوأ مرحلـة في تاريـخ الدولـة الأمويـة بالرغـم مـن إنـه حماهـا ولكـن بالدمـاء التـي زهقـت وروت الأرض ولـلآن تشـكوا هـذا النظـام والاسـتبداد الـذي مارسـه الحجـاج بـن يوسـف ضـد الولايـات التـي حكمهـا بالقوة وبمباركـة مـن عبـد الملـك بـن مـروان ولكـن الحقيقـة تقـول أن الحجـاج كان موظفـاً أحسـن كل الإحسـان في خدمـة بنـي أميـة ونجـح كل النجـاح في توطيـد حكـم عبـد الملـك بـن مـروان فـإذا كان هنـاك أخطـاء ارتكبهـا ومـا أكثرهـا يجـب أن لا يغيـب عـلى حكـم القـارئ أن الحجـاج كان يسـاير سياسـة معينـة ويقـرر خطـة قـد يختلـف عبـد الملـك بـن مـروان في طريـق تنفيذهـا ولكنـه مـا أنكرهـا ولا سـعي لوضـع حـد لهـا.

فـإذن فالحجـاج في الواقـع كان عاملاً ينفـذ خطـة مـولاه وموظفـاً أمينـاً لسياسـة بنـي أميـة في ذلـك العهـد العصيـب مـن عصـور الإمبراطوريـة العربيـة.

يقول بعض المؤرخين أن الحجاج أصيب بالسرطان في آخر أيامه. وإنه كان يتعذب عذاباً شديداً وإنه ظل على عذابه هذا خمسة عشر يوماً. ولما انتشر خبر وفاته بين الناس ظهر الفرح على الوجوه وأخذ الناس يهنئون بعضهم وسجد بعضهم للأرض شكراً لله على موت الحجاج كما ذهب آخرون يقسمون الإيمان المغلظة بأن الحجاج ذهب إلى النار وإنه الآن حطب في جهنم.

وقال إبن خلكان عن مرضه "إن الله سلط عليه الزمهرير فكانت الكوانين تجعل تحته مملؤه ناراً. وتدني منه حتى تحرق جلده. وهو لا يحس بها.

وكان أئمة المسلمين يجمعون على تكفير الحجاج لبطشه وقتله الناس بغير حق.

واختلف المؤرخون في مرض الحجاج وإذا نظرنا إلى أنه كان شرهاً – كثير الأكل – فلا يبعد أن يكون سبب موته. ما أصاب معدته من تعب وعناء. وما صارت إليه من عجز عن هضم الأطعمة الكثيرة.

كان الحجاج يخبر عن نفسه... أن أكثر لذاته سفك الدماء. وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره ولا سبق إليها سواه.

ومات في مدينة واسط ودفن بها وروي ابن خلكان إنه كان ينشد في مرض موته هذان البيتين

يا رب قد حلف الأعداء واجتهدوا إيمانهم أنني من ساكني النار
أيحلفون على عمياء وبحجهم ما ظنهم بعظيم العفو غفار

ولما بلغ عمر بن العزيز موت الحجاج خر ساجداً – وكان يدعوا الله أن يكون موته على فراشه ليكون أشد لعذابه في الأخرة هذا هو الحجاج بن يوسف الثقفي اختلف عليه في حياته ومماته ولكنه يبقي ذلك الرجل القوي الذي حمل سيفه ليقطع رقاب كل من يقف في طريقه وحمل معه كرهاً وذنوباً وذكريات أليمة.

**د. عبد الكريم العلوجي**

# خطبة الحجاج في أهل العراق

وقال الحجاج لأحد أصحابه:

- على بالناس!

فأخذ رجاله يدعون أهل الكوفة للصلاة جامعة، فاجتمع الناس، والحجاج ساكت قد أطال السكوت، والناس لا يزالون في شك من أمره، حتى لقد فكر أحدهم في حصيه، فلما عج المسجد بالناس، وقف الحجاج وكشف عن وجهه وقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

"أما والله أني لأحمل الشر محمله، وآخذه بفعله، وأجزيه بمثله، وأني لأري رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وأني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي قد شمرت عن ساقها تشميراً.

"أن أمير المؤمنين عبد الملك قد نثر كنانته فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلها مكسراً، فوجهني إليكم ورمي بي في نحوركم، فإنكم أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق، فإنكم طالما أوضعتم في الشر، وسننتم سنن الغي، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا العصيان وتتقادوا، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلينوا، إني والله ما أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا مضيت، وأن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وأني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه".